(١)

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

تعريف الاغترار :

هو الزيغ عن حقيقة الشيء، وتصور هذه الحقيقة تصوراً خاطئاً، وينبنى على هذا التصور الخاطئ أقوال وأفعال خاطئة.

وإذا كان الاغترار اسم فإن الفعل هو غر، يغر، غروراً.

فمن الفاعل، ومن المفعول على ضوء ما جاء بآيات القرآن الكريم ؟

الفاعل .. هو الشيطان الرجيم .. فهو الغَرور.

والمفعول .. هو الإنسان .. فهو المغتر.

ولسنا هنا بصدد إعراب آية من آيات القرآن الكريم، ولكننا بصدد حصر أطراف هذا الموضوع لمزيد من الفهم والإيضاح، وبالتالى نستطيع أن نقول :

أن الغرور (الفاعل) يغر (الفعل) المغتر (المفعول به) لكى يتصور الشيء على غير حقيقته بهدف إضلاله عن الحق إلى الباطل، وعن الخير إلى الشر، وعن ما ينفع إلى ما يضر. فإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص نقول أن الغرور يغر المغتر بهدف إضلاله عن الإيمان إلى الكفر، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن الرشد إلى الغى، وعن الإخلاص إلى الرياء .. وهكذا.

فما هى المجالات التى يسعى الشيطان أن يجعلها موضوعاً للاغترار لكى يتصورها الإنسان على غير الحقيقة ؟

اولاً : الاغترار بالله :

مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦].

* ﴿ ... وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

* ﴿ ... وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥].

والاغترار بالله له صور مختلفة مثل :

١ ـ إنكار وجود الله .. وهو الإلحاد.

٢ ـ أن يُشرك مع الله فى العبادة آلهة أخرى .. وهو الشرك.

٣ ـ الطمع فى ثواب الله مع الأمن من عقابه .. وهذا يتنافى مع المعرفة الحقة لله الذى عرَّف لنا نفسه فى قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ويتنافى مع الصورة الصحيحة للعبادة والتى تتضح من وصف الله لمن يعبدونه حق العبادة فى قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

[السجدة: ١٦].

٤ ـ إساءة الأدب مع الله :

وهو ما قاله اليهود :

* ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ...﴾ [المائدة: ٦٤].

٥ ـ نسبة الولد لله .. وهو ما قاله اليهود والنصارى، وأنهم أبناء الله وأحباؤه :

مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.

[التوبة: ٣٠].

* ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ...﴾ [المائدة: ١٨].

والله سبحانه وتعالى هو الغيب الأكبر .. لذلك يكون الاغترار به عن طريق

الشيطان (الغَرور) مباشرة دون وسائط .. مثل الاغترار بالدين لأنه غيب أيضاً.

ثانيًا : الاغترار بالدين :

مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣، ٢٤].

والإشارة فى الآيات إلى اليهود .. إنهم يتولون عن حكم كتاب الله ويعرضون عنه بحجة أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات دون أن يكون لديهم دليل من كتاب الله على ذلك.

ومن الغريب أن من غرهم الشيطان فى دينهم يصفون من عرفوا دينهم حق المعرفة بأن دينهم قد غرهم .. إنه كيد الشيطان الذى لا يثمر إلا مع المنافقين والذين فى قلوبهم مرض .. واستمع إلى قوله تعالى تعقيباً على وقائع غزوة بدر.

* ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٨، ٤٩].

ثالثًا : الاغترار بالدنيا :

مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ ... فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥].

لأن الدنيا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فمن لم يستجب لتحذير الله له فى الدنيا، كان له فى الآخرة سوء العاقبة

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية: ٣٤، ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

* ولقد وصف الله لنا الحياة الدنيا في كثير من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

* وأكد هذا الوصف بهذا المثل: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

* ويعيب الله على من يؤثرون الحياة الدنيا رغم كل هذه الأوصاف والأمثال فالآخرة خير وأبقى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾.

[الأعلى: ١٦، ١٧].

* ويؤكد الله أن الآخرة خير وأبقى بأنها حقيقة ينبغي أن يدركها كل ذي عقل وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

* ولو استطردنا في ذكر الدنيا وأوصافها ما انتهينا فقد ذكرها الله في القرآن

الكريم ١١٥ مرة، ورغم ذلك فقد غرت الدنيا أكثر الناس. غرتهم بذاتها فهي مزينة في ذاتها، ومزينة في نفوسهم، ومزينة بوسوسة الشيطان .. يقول تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾.

[آل عمران: ١٤].

* ولم يقتصر اغترار الناس بالدنيا على حبها وإيثارها على الآخرة ولكنه امتد إلى وصفها على غير حقيقتها التي عرّفها لنا الله بأنها ابتلاء وأن الآخرة هي الجزاء .. فقد قال المغترون بها :

* ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩].

* ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾.

[المؤمنون: ٣٧].

* ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾.

[الجاثية: ٢٤].

رابعًا : الاغترار بالأماني :

مصداقاً لقوله تعالى

* ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

والذى ينادى هم المنافقون والمنافقات يوم القيامة والمنادَى هم المؤمنون، حيث يطلبون فى ندائهم أن يقتبسوا نوراً من نور المؤمنين، فيكون رد المؤمنين عليهم كما جاء فى الآية فقد منّاهم الشيطان بشتى الأمنيات وغرهم بالله ثم خذلهم !!

* ولقد كان لهم فى موقف الشيطان من أبيهم آدم وأمهم حواء عبرة وعظة وتذكرة ولكن أنّى لهم الذكرى !!

يقول تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ١٩ - ٢٢].

لقد منّاهم الشيطان بأن يكونا ملكين وأن يكونا من الخالدين إذا أكلا من الشجرة، وغرهما بالله بأن أقسم بالله أنه لهما لمن الناصحين، فاغترا بالأمانى واغترا بقسمه لهما بالله، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ﴾.

* إن التمنى من طبيعة الإنسان مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٢٤، ٢٥].

أى أن الأمور لا تجرى بالأمنيات ولكنها تجرى بالمقادير التى قدرها الله فهو الأول والآخر وله الأولى والآخرة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

هذه هى مقادير الله للإنسان وهذا هو نظامه وسنته التى لا تتبدل ولا تتحول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر: ٤٣].

* والأمانى هى الثغرة التى ينفذ منها الشيطان للإنسان لكى يغره فى الله وفى الدين وفى الدنيا فقد قال - لعنة الله عليه - لله عز وجل: ﴿ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

[النساء: ١١٨ - ١٢٠].

* وهى الثغرة التى نفذ منها إلى آدم وحواء كما أوضحنا من قبل، وينفذ منها إلى بنى آدم جميعًا حتى الأنبياء والرسل، إلا أن الله سبحانه وتعالى يحفظ أنبياءه ورسالته التى يبلغونها للناس وينسخ ما يلقى الشيطان فى أمنياتهم لكى تصل رسالته طاهرة نقية ومُحكمة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

* فما الذى يتمناه الأنبياء والرسل ؟

يتمنون أن يهتدى أقوامهم إلى الله ـ تعالى ـ ويسلموا وجوههم إليه ويستجيبوا لدعوة الحق، ويخرجوا من ظلمات الكفر والشرك والمعصية إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة.

وهل هناك مثل من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام تطبيقًا لهذه الآية ؟ (الآية ٥٢ من سورة الحج) .. نعم .. لقد جاء المثل فى سورة «عبس» .. فقد تمنى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُسلم كبار القوم من كفار قريش وروى عنه أنه قال: «اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين» ـ أى بإسلام عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام (أبو جهل) .. ومن هنا كان حرصه على دعوة هؤلاء الكبار وتمنيه أن يسلموا. ومن هذه الأمنية نفذ الشيطان فعبس الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتولى عن الأعمى وهو عبد الله بن أم مكتوم. انصرف عمن جاءه يسعى وهو يخشى إلى من سعى هو إليهم وهم غير راغبين فيه وفيم يدعو إليه .. فنزلت السورة للتصحيح ولنسخ ما ألقاه الشيطان فى أمنية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولتلقى هذا الدرس الهام من دروس الدعوة إلى الله .. كل ذلك فى إطار من العتاب الرقيق من

الله ـ تعالى ـ لأن أمنية الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم تكن أمنية شخصية لمصلحته ولكنها كانت لمصلحة الدعوة .. فما كان من صاحب الدعوة إلا أن أحكم آياته وأنزل توجيهاته.

* وإذا كان التمنى من طبيعة الإنسان .. فليس مطلوباً منه إلغاء هذه الطبيعة ولكن عليه فقط أن يحذر من إلقاء الشيطان فيها ويجعل أمنياته مشروعة.

والأمنيات المشروعة هى كل ما طلبه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى أدعيته المأثورة، وكل ما جاء من أدعية فى القرآن الكريم على لسان الأنبياء والرسل، وكذلك ما أثر عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعباد الله الصالحين من أدعية.

أما الأمنيات غير المشروعة فهى محظورة لأنها من إلقاء الشيطان، ومن أمثلتها فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ويستكمل الله توجيهه فى نفس الآية ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.

[النساء: ٣٢].

ومن أمثلتها فى السنة المطهرة ما يرويه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» متفق عليه.

خامسًا : الاغترار بزخرف القول :

مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

* والزخرف هو الزينة، والزينة تكون للأشياء والأقوال، وزينة الأشياء مرئية، وزينة الأقوال مسموعة، والبصر والسمع هما الحاستان الأساسيتان اللتان تُدرَك بهما

المدركات. إذاً فالزخرفة تكون لتزيين الأشياء لتُقْبل عليها الأبصار وأصحاب هذه الأبصار، وتكون لتزيين الأقوال لتُقْبِل عليها الأسماع وأصحاب هذه الأسماع.

وبالتالى يكون القول .. هو شطر ما يُزيِّن للناس، وقد يكمن الاغترار خلف زخرف القول كما يُدَس السم فى العسل، وتكون الزخرفة وسيلة الاغترار بالقول مثلما يكون العسل وسيلة لابتلاع السم.

* وزخرفة الأقوال هى الوسيلة الثانية التى يستخدمها شياطين الجن والإنس للتغرير بالإنسان إذا لم تجد معه الوسيلة الأولى وهى زخرفة الأشياء، أو إذا كانت زخرفة الأقوال هى الوسيلة المناسبة للحالة مثلما حدث مع آدم وحواء فى الجنة، لأن من كان فى الجنة التى زخرفها الله ولا ينقصها شيء مما يحتاجه آدم وحواء .. لا مجال لزخرفة الأشياء، والوسيلة المناسبة للتغرير هى زخرفة الأقوال .. وهو ما حدث من إبليس ـ لعنة الله عليه ـ وكان ما كان بعد ذلك.

* وزخرفة القول كوسيلة لشياطين الجن والإنس للتغرير بالإنسان جديرة بالالتفات والاهتمام رغم أنها لم تذكر سوى مرة واحدة فى القرآن الكريم فى هذه الآية من سورة الأنعام (الآية ١١٢) .. فليحذر الإنسان من زخرف الأقوال كما يحذر من زخرف الأشياء .. وهذا التحذير يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

والفؤاد هو وسيلة التمنى التى عالجناه فى البند السابق.

سادسًا : الاغترار بتقلب الذين كفروا فى البلاد :

مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

* ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾.

[غافر: ٤].

* والتقلب فى البلاد دليل على علو الشأن وكثرة الأرزاق والتمتع بزينة الحياة الدنيا أينما كانت .. ولا يكون ذلك للفقراء والمساكين، فالفقير يعجزه فقره والمسكين ما سمى مسكيناً إلا لأن الفقر أسكنه عن الحركة والتنقل. فإذا رأى المؤمنون تقلب الذين كفروا فى البلاد قد يغرهم ذلك وتتجاذبهم الأفكار ووساوس الشيطان فى شأن الحق الذى هم عليه، وخاصة إذا كانوا فقراءً أو مساكين فيحدثون أنفسهم ويتساءلون لماذا أعطى الله الذين كفروا ما أعطاهم ومكنهم من التقلب فى البلاد والتمتع بزينة الحياة الدنيا والمؤمنون أولى منهم بذلك؟! .. فيعاجلهم الله بما يبدد هذه الوساوس من نفوسهم ويقول لهم أن ما فيه هؤلاء متاع قليل فى دار الفناء ومأواهم بعد ذلك جهنم فى دار البقاء.

* فأين الآن فرعون الذى تقلب فى البلاد بسلطانه؟ وأين قارون الذى تقلب فى البلاد بماله ؟

إن التجارة التى بين الله ـ تعالى ـ والمؤمنين هى الآخرة وليست الدنيا .. تلك هى التجارة الرابحة، وأن سلعة الله هى الجنة مصداقًا لقوله الرسول عليه الصلاة والسلام: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» رواه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ.

وقوله ﷺ « إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا من أحب » رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

* .. وبعد .. فقد استعرضنا فيما سبق صور اغترار الإنسان كما جاءت فى القرآن الكريم وتبين لنا أن فاعلها هو الشيطان الرجيم .. إما مباشرة إذا كان موضوع الاغترار هو الغيبيات (الله ـ الدين) ، وإما بطريقة غير مباشرة (الدنيا ـ الأمانى ـ زخرف القول ـ تقلب الذين كفروا فى البلاد) مع الاستعانة فى ذلك بأوليائه من شياطين الإنس .. أعاذنا الله من شياطين الجن والإنس جميعاً.

فليحذر الإنسان من كل ذلك، وليعبد الله خوفًا وطمعاً .. لأن من عبد الله خوفًا

فقط أورثه الله ذلك اليأس والقنوط، ومن عبد الله طمعاً فقط أورثه ذلك الاغترار بالله.

* وختامًا لهذا البحث .. نذكر هذه القولة العبقرية للصحابى الجليل عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «كفى بالخشية علماً، وكفى بالاغترار جهلاً».

فمن خشى الله فقد عَلِم، ومن اغتر فقد جَهِل.

(٢)

وأنه هو أضحك وأبكى

يقول تعالى فى سورة النجم :

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ .

[النجم: ٤٢ - ٤٩].

لقد عرّفنا الله بذاته العلية وبأسمائه وصفاته وأفعاله من خلال آيات القرآن الكريم، وزادنا الرسول عليه الصلاة والسلام تعريفاً بالله من خلال كثير من الأحاديث النبوية، وعلمنا من العلماء أن أشرف العلوم هو العلم بالله، وأن أعرف الناس بالله هم أخشاهم له مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقارئ القرآن قد مر عليه قبل قراءة سورة النجم كثيرٌ من أسماء وصفات وأفعال الله عز وجل التى وردت فى هذه السورة، فإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة العلق قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق: ٨]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ فقد قرأ فى سورة آل عمران ـ وفى غيرها من السور ـ قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة الحجرات قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ فقد قرأ فى سورة التوبة قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴾ [التوبة: ٢٨]، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨]، وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ

الشِّعْرَىٰ﴾ فقد قرأ قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] .. وهكذا الأمر في غير ذلك من الآيات. ولكن هل قرأ قبل ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

إنها المرة الأولى التي يلتقي فيها قارئ القرآن بهذا المعنى من أفعال الله سبحانه وتعالى وهو يعني أن من ضحك فإن الله هو الذي أضحكه، وأن من بكى فإن الله هو الذي أبكاه ..

وقبل قراءة هذه الآية قد يظن الضاحك أو الباكي أن الضحك أو البكاء لبساطتهما كشأن من شئون الإنسان اليومية .. ليس لله شأن بهما، ولكنه يكتشف بعد القراءة أنه حتى الضحك والبكاء من أمر الله وبمشيئة الله، وإذا كان الأمر كذلك فسوف يتأكد له أكثر من ذي قبل أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن شأن الله يشمل البسيط والعظيم من شئون الخلق والمخلوقات، وأن قيوم السماوات والأرض لا يند عن سلطانه وأمره ومشيئته شيء .. حتى ضحك الضاحك، وبكاء الباكي، فإذا شاء ضحك، وإذا شاء بكى، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتأكيداً لهذا المعنى فقد ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام دعاء مأثور .. فإذا رأيت أخاك ضاحكاً فقل له: «أضحك الله سنك» رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

من هذا الدعاء المأثور نعرف أن الضحك من الله وأنه مما يسأله العبد من ربه لنفسه أو لغيره. وبالنسبة للبكاء فهو أيضاً من الله وتأكيداً لهذا المعنى فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «أرسلت ابنة النبي ﷺ (زينب) إليه أن ابناً لها في الموت فأتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن

ثابت، ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تقعقع كأنها شن وفاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

من هذا الحديث نعرف أن البكاء وما يصاحبه من دموع تذرفها العيون ما هو إلا رحمة جعلها الله في قلوب عباده ويعرف ذلك كل من ذرف الدموع في مثل هذه المواقف وكيف هدأت نفسه بانسيابها، ويعرف ذلك أكثر من استعصت عليه الدموع فلم تطاوعه وتحجرت في مآقيه فلا تهدأ نفسه حتى يمن الله عليه بانسيابها .. حقًا إنها رحمة من الله.

* ولو تابعنا مسيرة الإنسان مع الضحك والبكاء .. نجد أن مسيرته تبدأ بالبكاء عند نزوله من بطن أمه، وللأطباء تفسيرات طبية لهذا البكاء فهو إعلان بميلاد المولود حيًا، وهو يساعد على امتلاء رئة المولود بالهواء، وهو بكاء ناتج عن اختلاف البيئة التي كان فيها المولود والبيئة التي خرج إليها .. وغير ذلك من الأسباب .. وللشعراء تفسيرات أخرى فيقول ابن الرومي ساخرًا.

لمَا تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعةَ يولدُ

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأرحب مما كان فيه وأرغدُ

وبعد ذلك يصبح الضحك والبكاء بالنسبة للطفل .. اللغة الوحيدة التي يتعامل بها مع أمه فإذا ضحك فإن هذا يدل على شبعه ونظافته وسلامته من أية أوجاع، وإذا بكى فإن هذا يدل إما على جوعه، أو بلل لفائفه، أو وجع يعاني منه أو كل ذلك فتهرع إليه أمه لإرضاعه، أو تغيير لفائفه، أو إعطائه الدواء المناسب لأوجاعه .. وهي تعرف كل ذلك بخبرتها وفطرتها وخاصة إذا تكرر حملها وولادتها. وتظل هذه هي لغة التفاهم والتخاطب بين الأم ووليدها حتى يتعلم الكلام ويستغني بعد ذلك عن لغة الضحك والبكاء.

ويشب الطفل بعد ذلك فيصبح صبيًا أو صبية، ثم فتى أو فتاة، ثم رجلاً أو

امرأة، ويصبح الضحك دليلاً على الرضا، ويصبح البكاء دليلاً على الغضب، كما يصبح الضحك دليلاً على الفرح والسرور، ويصبح البكاء دليلاً على الحزن والألم، فالحياة لا تسير على وتيرة واحدة حيث يتقلب حال الإنسان بين السراء والضراء، والفرح والحزن، والرخاء والشدة، واليسر والعسر، والخير والشر .. فهو مبتلى بهذا وذاك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾.

[الأنبياء: ٣٥].

* والضحك عند السراء، والبكاء عند الضراء دليل على استواء النفس، وهو ظاهرة صحية تدل على سلامة المشاعر والعواطف، وبالتالى يمكن القول أن عدم الضحك عند موجبات الضحك، وعدم البكاء عند موجبات البكاء يعتبر ظاهرة مرضية، وتشتد هذه الظاهرة المرضية عند الضحك حيث يجب البكاء، وعند البكاء حيث يجب الضحك .. وإن كان يحدث أحياناً ـ واستثناءً من القاعدة ـ أن تنساب من العين دموع الفرح وهو أمر طبيعى وليس مرضياً.

* والضحك والبكاء لا ينبغى أن ينظر إليهما نظرة ظاهرية، فليس الضحك فماً يُفتح وصوتاً يرتفع، وليس البكاء دموعًا تنساب على الخدود ونشيجًا يخرج من الصدور، ولكن الضحك والبكاء ما هما إلا أثر من آثار تصاريف قدر الله عز وجل فى العباد، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة، وإيمان المؤمن بأن الضحك من الله الذى أضحك وبأن البكاء من الله الذى أبكى .. ما هو إلا إيمان بقضاء الله وقدره .. خيره وشره، حلوه ومره. لذلك لا يدخل الضحك من نكتة تلقى، ولا البكاء من بصلة تقطع ضمن المعنى المقصود من الآية. وهذا لا يمنع من إباحة الدعابة اللطيفة مثلما كان يفعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فيدخل عليهم السرور.

* وحيث أن الضحك والبكاء من الله فإن له ضوابطه الشرعية فى الدين، فإن كان الضحك من دعابة فلا ينبغى أن تتضمن إلا حقًا مع التزامها بالأدب وحسن الخلق وتروى لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ مُستجمعًا

قطُ ضاحكاً حتى ترى منه لهواتَه إنما كان يتبسم» متفق عليه. واللهوات: جمع لهاةٍ، وهي اللحمة التي في أقصى الفم. ويروى لنا أبو ذر الغفاري ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ: أوصني فأوصاه بكثير من الوصايا ومن بينها: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه» رواه أحمد، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، والحاكم واللفظ له.

وأما عن ضوابط البكاء فيروى ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ ذهب هو وبعض أصحابه لعيادة سعد بن عبادة ﷺ في مرض موته فلما دخل عليه وجده في غشية فقال: «أقُضيَ. قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله فلما رأي القوم بكاء النبى عليه الصلاة والسلام بكوا. قال: ألا تسمعون، إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا ـ وأشار إلى لسانه ـ أو يرحم» متفق عليه.

فلا ينبغي أن يُخرج البكاء والحزن المؤمن عن حد الاعتدال أو يتكلم إلا بما يرضى الله تعالى فلا اعتراض ولا هلع، ولكن بكاء من العين، وحزن في القلب، وصبر واحتساب. وتأكيداً لهذا المعنى يروى لنا ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» متفق عليه. فإن ضرب الخدود وشق الملابس وتمزيقها من الجيوب ـ أى من فتحة العنق ـ من مظاهر الحزن المبالغ فيه والمنهى عنه علاوة على التكلم بما كان يقال في الجاهلية وقبل الإسلام وبما يتنافى مع عقيدة التوحيد. والأحاديث التى تُروى عن ضوابط الضحك والبكاء كثيرة ونكتفى منها بهذا القدر.

* ولعلنا بعد هذا السرد وهذا التأمل في هذه الآية التى لا تتجاوز كلمات أربع نكون قد تعرفنا على الله بفعل من أفعاله لم يرد ذكره إلا في هذه الآية حتى نوقن بأن الأمر كله لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله .. ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ مثلما أنه هو القابض الباسط، وهو الخافض الرافع، وهو المعز المذل، وهو المبدئ المعيد، وهو المحيى المميت، وهو المقدم المؤخر، وهو الأول الآخر، وهو الظاهر الباطن، وهو الضار النافع .. هو الله.

(٣) الإنسان والجان .. وآلاء الرحمن .. وعروس القرآن

يقول تعالى فى مطلع سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن: ١ - ١٢].

* يكفى هذه السورة شرفًا أنها مسماة باسم الذات الإلهية .. الرحمن، ومبدوءة بهذا الاسم من أسماء الذات، وعلى هذا الاسم من حيث اللفظ يضبط إيقاع السورة وموسيقاها العلوية الشجية، وعلى هذا الاسم من حيث المعنى يدور موضوع السورة. فموضوعها رحمة الرحمن وصور هذه الرحمة، ونعم الله الذى يُذكِّر بها قارئ السورة إحدى وثلاثين مرة في قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .. والآلاء هى النعم .. ومفردها إِلْىٌ وأَلْىٌ وأَلَىٌ.

* ويلفت النظر فى بداية السورة أن الآيات الخمس الأولى ليس بينها حرف العطف «الواو» فإنها متلاحمة ومتماسكة وكأن ما بينها من تجاوب وتآلف يجعلها فى غنىً عن أن يقوم بينها عاطف يعطف بعضها على بعض، ويجمع بعضها إلى بعض.

* كذلك نجد أن كل آية من هذه الآيات الخمس وكأنها تتضمن سؤالاً محذوفًا نجد إجابته فى الآية التى تليها، والآية التى تليها رغم أنها إجابة لما قبلها فإنها فى نفس الوقت تتضمن سؤالاً محذوفًا نجد إجابته فى الآية التى تليها .. وهكذا .. وذلك على الوجه التالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ .. ما شأنه؟ وما مظاهر رحمته؟ .. ذاك سؤال.

﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ .. وهذا جواب يقوم وراءه سؤال .. كيف علم القرآن؟

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾ .. وهذا جواب يثير سؤالاً .. وماذا بين خلق الإنسان وتعليم القرآن؟

﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ .. وهذا هو الجواب فبالبيان الذى علمه الله للإنسان .. تعلم القرآن. ومن وراء هذا الجواب سؤال .. وأى شىء يقرؤه هذا الإنسان الذى خلقه الله مستعداً للقراءة والبيان لما يقرأ؟ .. والجواب هو أن الإنسان عليه أن يقرأ آيات الله فى الكون (الآيات الكونية) وآيات القرآن الكريم (الآيات التنزيلية) .. والآيات التنزيلية تذكر بعض آيات الله الكونية ومنها: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾.

* كما يلفت النظر فى هذه الآيات الخمس الأولى من السورة .. تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان. ويرجع ذلك لأن الإنسان خلق لمعرفة الله وعبادته مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فمعرفة الله وعبادته هى العلة.

وخَلْقُ الإنسان ليقوم بوظيفة هذه المعرفة والعبادة هو معلول هذه العلة، والعلة مقدمة على معلولها ولهذا قُدِّمَ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴾.

* والقرآن .. هو القراءة الواعية فى صحف الوجود وفى كتب العلم وأجلُّها وأعظمها القرآن الكريم. وبعد القراءة الواعية يلزم للإنسان أن يعبر عن نفسه لذلك ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ وأصل هذا التعليم قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. ولنقرأ فيما يلى ما علمته لنا السورة من قراءة فى صحف الوجود.

* ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾.

وهل يخفى القمر؟ .. لقد صدق من قالها، لأن آية القمر لا تخفى على أحد .. قل علمه أو كثر، وكذلك الشمس فهى أكبر، ولكل إنسان نصيبه من هذه المعرفة التى أقلها أنه بالشمس يُعرف الليل والنهار وأوقاتهما بالساعة وأجزائها، وبالقمر تُعرف الأيام والشهور مع دورة القمر مع الهلال إلى المحاق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]. ولا حدود حاليًا ولا مستقبلاً لهذه المعرفة بعد أن امتلأت أجواز الفضاء بالأقمار الصناعية والمحطات الفضائية، ورواد الفضاء الذين خطا أحدهم أول خطوات للإنسان على سطح القمر منذ سنوات، ولا ندرى ما تحمله لنا السنوات القادمة من علم جديد عن عالم الفضاء والأجرام السماوية.

وكما تبدوا لنا الشموس والأقمار والنجوم بالعين المجردة أو بالأجهزة العلمية وكأنها تنبت فى الفضاء وتظهر أحياناً وتختفى أحياناً أخرى، فإن الأرض صفحة أخرى من صفحات الوجود أقرب إلينا وندب عليها ولا يخفى على أحد ما ينبت فيها من نبات .. حيث النبات نوعان:

الأول .. النجم وهو النبات الذى ليس له ساق مثل الحشائش.

الثانى .. الشجر وهو النبات الذى له ساق مثل الأشجار التى نراها مثمرة وغير مثمرة ولها ساق وفروع وأغصان تشتجر وتمتلئ بالأوراق. وكل ما ينبت فى السماء من شموس وأقمار ونجوم، وكل ما ينبت في الأرض من نجم وشجر .. يسجد لله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

* ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾.

كل ما علاك فهو سماء، فمن لم ير من السماء شيئًا .. لا شمسًا ولا قمرًا وهذا مستحيل، فإنه يرى السماء ذاتها ويرى أنها مرفوعة بغير أعمدة تحملها، وكذلك من لم ير من الأرض شيئًا .. لا نجمًا ولا شجراً فإنه يرى الأرض ذاتها لأنه يدب عليها، وارتفاع السماء بميزان، واستواء الأرض بميزان، وما يحيط بالغلاف من غازات وأبخرة بميزان، وما يحوم حول الأرض من رياح بميزان .. وكل شيء فى هذا

الكون بميزان وله حدود لا يتجاوزها ووظيفة يؤديها دون اختلاط أو تداخل أو تقاطع يؤدى إلى الارتباك. وحتى ينسجم الإنسان مع هذه الحركة الدائبة والهائلة والمنضبطة لهذا الكون .. عليه أن يؤدى وظيفته ولا يتجاوز حدوده مثلها، وميزانه فى ذلك القرآن الذى تعلمه من صفحات الكون ومن صفحات كتاب الله .. القرآن الكريم، وإلا شذ عن هذا النظام الكونى البديع، وأصبح كالنغمة النشاز فى اللحن الجميل، أو كالترس الذى يدور فى اتجاه معاكس لاتجاه آلة الكون المنضبطة، فهى ماضية فى اتجاهها الصحيح، وهو الذى يعانى من دورانه العكسى.

* ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

إن كل ما سبق من آيات هى من نعم الله ـ تعالى ـ على الإنسان .. ابتداءً من خلقه، إلى تعليمه القرآن والبيان، إلى خلق السماوات والأرض وما فيهن. ثم يتوالى ذكر نعم الله ـ سبحانه ـ فى السورة فى تفصيل بديع، وفيها أنه لم يخلق الضرورات فقط من الطعام و الشراب ولكنه خلق أيضًا للإنسان ما يتفكه به من فاكهة مثل ثمرات النخيل. ولم يخرج له من الأرض النبات مثل الحبوب لكى يملأ بها بطنه فقط، ولكنه أخرج له أيضًا من الأرض ما تطيب به روحه من النباتات ذات الروائح الزكية مثل الزهور والورود والرياحين. فكما يخلق الله ـ عز وجل ـ ضرورات الحياة كغذاء الأجسام، فإنه يخلق معها لمسة الجمال كغذاء للأرواح .. وتأمل تسمية الروائح الزكية بالريحان وعلاقة هذه التسمية بالروح.

ثم يجيء السؤال المتكرر فى السورة عقب كل نعمة وهو قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .. أى فبأى نعم الله تكذبان .. والخطاب للإنسان والجان. ومما يُذكر فى هذا الصدد ما رواه الترمذى عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا: لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

وعلينا نحن معشر الإنس أن نردد مع هذا النفر من الجن المؤمن هذا القول الطيب، وهذا الإقرار الواجب.

نعمة الفناء والبقاء :

ورد فى هذه السورة آيات تُذَكِّر الإنسان والجان بنعم الله عليهما، منها ما هو واضح أنه نعمة، ومنها ما قد يتساءل قارئ السورة .. وهل هذه نعمة؟ .. مثل نعمة الفناء المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٨]. ومثل قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾[الرحمن: ٣١]، ومثل قوله تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾[الرحمن: ٣٥]، ومثل قوله: ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾[الرحمن: ٤١]، ومثل قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾[الرحمن: ٤٣ ـ ٤٤]. وسوف نكتفى بتوضيح نعمة الفناء كنموذج من نماذج النعم التى قد يتبادر لذهن قارئ السورة أنها ليست بنعمة .. وذلك على الوجه التالى :

١ ـ نعمة الفناء تبدو لنا جلية لو تصورنا أن كل حى لا يموت حتى تقوم الساعة، فهل كانت الأرض تتسع لكل الأحياء من إنسان أو حيوان أو طيور أو حشرات أو أسماك .. حيث تولد المواليد ولا يموت الأحياء؟! .. هل يتحمل ظاهر الأرض هذا؟ وهل تكفى الأقوات كل الأحياء؟ وهل .. وهل .. وهل؟! إن مجرد طرح هذه الأسئلة ومثلها ودون الإجابة عليها يوضح لنا أن الفناء نعمة عظيمة وحكمة بالغة .. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢]

* ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

وتأمل نعمة المنعم، وحكمة الحكيم .. الذى خلق الموت والحياة، وجعل الأرض كفى الأحياء فوقها والأموات تحتها.

٢ ـ كما تبدو لنا نعمة الفناء جلية إذا تذكرنا أن بعد هذه الحياة الدنيا الفانية، الحياة الآخرة الباقية .. وهى بالنسبة للمؤمن جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، وكما جاء فى هذه السورة من ألوان النعيم فى الجنة ونذكر منها قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١ - ٥٩].

وإلى جانب هذا النعيم فهناك رفقة الأنبياء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وقبل ذلك نعمة عظمى هى رؤية المنعم سبحانه وتعالى، ولا يحول بين المؤمن وكل ذلك إلا أنه لا يزال حيًا وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» رواه مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

٣ ـ يضاف إلى نعمة الفناء، نعمة البقاء ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾، فهو الباقى سبحانه وتعالى، وفى بقائه الضمان لاستمرار وانتظام السنن التى أرادها الله لهذا الكون ومنها سنة الموت والحياة، والضمان لتحقق ما وعد الله به عباده الصالحين فى الحياة الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

كل يوم هو فى شأن:

وقبل أن نغادر هذه السورة الكريمة التى تسمى عروس القرآن. فقد روى على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل شىء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن**» مقدمة السورة فى تفسير القرطبى. قبل أن نغادرها نقف لنتأمل قوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وسوف نكتفى فى تأمل هذه الآية بسرد بعض النصوص.

١ ـ عن أبى الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ فى معنى قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾: إن من شأنه ـ سبحانه ـ أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

٢ ـ وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ فلم يعرف معناها، واستمهله إلى الغد، فانصرف كئيباً إلى منزله فقال له غلام أسود ما شأنك؟ فأخبره فقال له: عد إلى الأمير فإنى أفسرها له فدعاه وقال:

«أيها الأمير .. شأنه أن يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل، ويخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، ويشفى سقيماً، ويسقم سليماً، ويبتلى معافى، ويعافى مبتلى، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويفقر غنياً، ويغنى فقيراً».

فقال له الأمير: فَرَّجت عنى فَرَّج الله عنك. ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام.

فقال الغلام: يا مولاى، هذا من شأن الله تعالى.

وليس هذا التبدل والتحول فى أحوال الناس، وفى صور الموجودات هو ما يحدثه الله سبحانه حين يحدث، وإنما هى أمور واقعة فى علم الله القديم، ومسطورة فى كتابه المكنون، فيُظهر منها ما يُظهر فى الوقت المقدور له، وعلى الصورة التى أرادها سبحانه وتعالى أزلاً. أو كما قال عز وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

وصدق من قال: «إنها أمور يبديها ولا يبتديها».

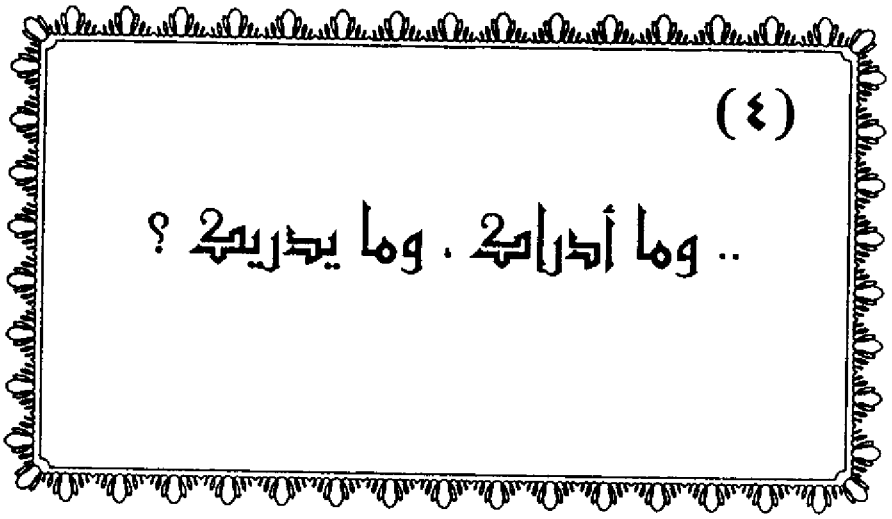
(٤)
.. وما أدراك . وما يدريك ؟

يقول الفراء : كل ما فى القرآن من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فقد أدراه، (يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام) وما كان من قوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ .. فلم يدره.

وإذا رجعنا إلى هذه الآيات فى كتاب الله ـ تعالى ـ نجد الآتى :

آيـــات ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ :

أولاً : آيات عن يوم القيامة وما يتعلق بها :

١ ـ ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

٢ ـ ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

٣ ـ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ [المرسلات: ١٣، ١٤].

٤ ـ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

٥ ـ ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ [المطففين: ٧ - ٩].

٦ ـ ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٨ - ٢١].

٧ ـ ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١ - ٣].

٨ ـ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٩ - ١١].

٩ ـ ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ [الهمزة: ٤ - ٧].

ويلاحظ أن الآيات السابقة تتعلق بالقيامة وأحوالها، وقد أدرى الله رسوله عليه

الصلاة والسلام عن هذه الأحوال إما بإجابة مباشرة كما جاء فى سورة المطففين وسورة القارعة وسورة الهمزة وإما بإجابة غير مباشرة تشمل موضوع السورة كله كما جاء فى سورة الحاقة، والمرسلات، وغيرهما.

ثانيًا : آيات تتعلق بموضوعات متنوعة :

١ ـ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾.

[الطارق: ١ - ٣].

٢ ـ ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾.

[البلد: ١١ - ١٦].

٣ ـ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: ١ - ٣].

ويلاحظ أن الإجابات فى هذه الآيات .. مباشرة.

آيـــات ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ :

١ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

٢ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

٣ ـ ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس: ٣].

ويلاحظ أن الآية الأولى والثانية تتعلق بالساعة .. أى القيامة وموعدها .. وهذا الموعد من الغيبيات التى لم يطلع الله عليها أحدًا من خلقه.

أما الآية الثالثة فتتعلق بالغيبيات أيضًا لأن الله هو الذى يعلم بمن يتزكى ومن يتذكر فتنفعه الذكرى .. ولله عاقبة الأمور.

وباستعراض كل ما سبق من آيات ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ يثبت لنا صحة ما قاله الفراء.

(٥)

ومـن آياتـه ..

لقد ذكر الله ـ تعالى ـ فى سورة الروم بعضًا من آياته الكونية بشكل متتابع بحيث تبدأ كل آية بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ... ﴾. وتعالوا بنا نتأمل هذه الآيات التنزيلية التى تتحدث عن الآيات الكونية ونستخلص منها العبر والعظات.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

[الروم: ٢٠].

إن الآية العظمى لله سبحانه وتعالى هى آية الخلق من عدم وعلى غير مثال سابق. ولقد خلقنا الله ـ تعالى ـ من طين هذه الأرض مصداقًا لقوله: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]. وقد ذُكر التراب كمادة للخلق فى هذه الآية لكى تتناسب مع قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾. ننتشر فى الأرض كما ينتشر التراب، فالطين الذى هو تراب وماء لا ينتشر ولكنه مستقر فى مكانه فإذا جف وهبت عليه الريح تحول إلى تراب ينتشر. وهذا هو حال الإنسان يتقلب بين الاستقرار والانتشار .. الاستقرار حيث يوجد الماء مثل دلتا الأنهار، والانتشار حيث يندر الماء أو يشح مثل البيئة الصحراوية وسكانها من البدو الرحل.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

بعد أن ذكر الله ـ تعالى ـ لنا فى الآية السابقة مادة الخلق الأول، أخبرنا فى هذه الآية، بآية الخلق المضطردة فى كل المخلوقات .. وهى الزوجية. ويجمع الله بين الآيتين فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ... ﴾ [فاطر: ١١]. وهذه الزوجية تشمل كل المخلوقات فى الأرض ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

ولا يتحقق سكن الإنسان إلا إذا سكن الزوج إلى زوجة فيسكن الرجل إلى المرأة، وتسكن المرأة إلى الرجل. والذى يديم هذا السكن هو المودة والرحمة، والذى

ينهيه هو الكراهية والقسوة. وكلا الزوجين يصبان مشاعرهما في إناء واحد إيجاباً وسلباً لأنهما شيء واحد وخلقا من نفس واحدة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... ﴾ [النساء: ١]. والدليل على وحدة المشاعر ـ وقبلها وحدة الخلق ـ أنه إذا أرضى الزوج زوجته شعر معها بالرضا، وإذا أغضبها شعر معها بالغضب، وكذلك الحال بالنسبة للزوجة تجاه زوجها. ولا يستدل على عظمة آية الزوجية إلا القوم الذين يتفكرون ويعملون عقولهم فيها. أما غيرهم فلا تتجاوز الزوجية عندهم حدود الغريزة البهيمية.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

هذه الآية تشير إلى آيتين كونيتين هما خلق السماوات والأرض، وهما من أعظم وأظهر ما خلق الله بل إنهما أكبر من خلق الناس مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم يعطف الله ـ تعالى ـ بعدهما بآيتين من آياته تتعلقان بخلق الناس وهما اختلاف الألسنة (اللغات) والألوان.

أما عن اللغات فهي بلا حصر وإن كانت أشهرها اللغات الحية، أما عن الألوان فهي الأبيض بدرجاته والأسود بدرجاته والأصفر. والجمع بين آيتي السماء والأرض، وآيتي اختلاف ألسنة وألوان الناس في آية واحدة، فيه إلفات لأهمية هذا الاختلاف وأنه أمر مقصود في الخلق. ومن ختام الآية نعرف أن موضوعها يعتبر مجالاً واسعًا للدراسات والأبحاث التخصصية .. لذلك نشأت علوم الفلك والفضاء (السماء) والجيولوجيا (الأرض) واللغويات واللهجات (الألسنة) والأجناس (ألوانكم) .. وغيرها من العلوم ..

لذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣].

إن النوم آية من آيات الله يعرفها ـ أكثر من غيرهم ـ الذين يصيبهم الأرق والذين جفا عيونهم النوم فيتضرعون إلى الله ـ تعالى ـ كما علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام «اللهم أهدئ ليلى، وأنم عينى» ويلجأون إلى الأطباء والأدوية المنومة حتى لا يصابوا بالانهيار العصبى.

والنوم آية لما فيه من رؤى وأحلام يحتار فى تفسيرها مفسرو الأحلام، ويحتار العلماء فى تفسيرها كظاهرة. والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، ولا ننس فى هذا الصدد رؤيا يوسف عليه السلام التى دارت عليها قصته فى سورة كاملة من القرآن الكريم.

والنوم آية دالة على البعث بعد الموت مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى . . . ﴾ [الأنعام: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وتصديقًا لهذه الآية علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الدعاء عند النوم: «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» رواه الستة.

فالنوم آية يومية تدل على البعث بعد الموت يصادفها كل إنسان وهى حجة على الجميع، فالمرئيات ليست حجة على الأعمى، والمسموعات ليست حجة على الأصم، ولكن كلاهما ينام ويستيقظ.

والنوم مثله مثل آية النبات فى إثبات البعث مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وتأمل كيف استخدم الله ـ تعالى ـ فعل الإنبات فى التعبير عن خلق الإنسان لكى يربط بين آية الموت والحياة بالنسبة للإنسان والنبات لكى يستدل بالمشهود لإثبات الغيب. والمشهود هو دورة النبات الذى يحيا ثم يموت ثم يحيا ثم يموت وهكذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

والغيب هو البعث .. فهل ينكر البعث بعد ذلك المنكرون؟ ويجحده الجاحدون؟ لقد أقام الله عليهم الحجة البالغة لكى يكون عذابهم يوم القيامة فى جهنم ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦].

والآية تشير أيضًا إلى النوم بالليل والنهار، وإن كان النوم عادة بالليل، ولكن الآية تدل على جوازه بالنهار أيضًا. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ - ١١]. وآية الروم تتفق مع آية النبأ فى أن النهار للمعاش وابتغاء فضل الله .. أى السعى للرزق. وبالتالى فإن الليل يكون أساسًا للنوم وهو لباس يستر الخلائق.

وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ .. لأن السمع وجودًا وعدمًا يدل على اليقظة والنوم. فالنائم لا يسمع وهذا دليل نومه، فإذا سمع استيقظ ويكون سماعه دليلاً على استيقاظه. وهكذا كان نوم أصحاب الكهف مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]. وعبر عن النوم بالضرب على الآذان .. أى عدم السماع.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

والبرق ـ كآية كونية ـ يخيف الناس بضوئه الخاطف للأبصار، ولكنه فى نفس الوقت يُطمعهم لأنه ـ مع الرعد ـ يكون إيذانًا بهطول المطر ونزول الماء من السماء الذى هو أساس الحياة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فيحيى الأرض بإنبات النبات بعد موتها بالجدب. والبرق آية عامة لكل ذى عقل .. ويكفى العقل السليم لإدراكها، وهو آية مرتبطة بما قلناه فى الآية السابقة عن حقيقة البعث التى تدل عليها آية النوم وآية النبات الذى تحيا به الأرض بعد موتها بنزول الماء من السماء واستمع إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ولاحظ الربط بين حقيقة البعث الغيبية، وآية النبات المشهودة لكى يدل المشهود على الغيب ولا يكتفى الله بملاحظتك ولكن يؤكد حقيقة البعث فى الآيات التالية مباشرة ..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٦].

إن قيام السماء والأرض هو استمرارها بأمر الله ـ تعالى ـ على ما هى عليه، فالسماء فوق الخلائق ترتفع بلا أعمدة ولا تسقط على الأرض مصداقًا لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. والأرض ممتدة وممهدة وفيها الجبال الرواسى وتشقها الأنهار مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾ [الرعد: ٣]، وجمع الله بين السماوات والأرض لتأكيد قيوميته عليهما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [فاطر: ٤١]. ذلك هو قيام السماوات والأرض بأمر الله القيوم، ولا تزول حتى يأذن الله بها بالزوال، ويكون هذا الزوال إيذاناً بالقيامة والبعث من القبور.

ويصور الله ـ تعالى ـ ذلك الذى سوف يحدث للسماوات والأرض ـ حين يرث الله الأرض ومن عليها ـ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم .. نذكر منها قوله تعالى:

* ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ﴾ [الطور: ٩، ١٠].

* ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً ﴾.

[الواقعة: ٤ – ٦].

* ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾.

[المرسلات: ٨ – ١٠].

* ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾.

[التكوير: ١ – ٣].

* ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: ١ – ٤].

* ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١ – ٤].

كل هذه الأحوال للسماوات والأرض يوم تقوم الساعة تتضمن قيام الناس من قبورهم في الأرض بدعوة من الله أى بأمره فتتبعثر القبور، وتلقى الأرض ما فيها وتتخلى إشارة إلى البعث وقيام الناس من القبور .. لرب العالمين وبأمر منه.

وهكذا خُتمت آيات الله فى الكون بالآية الكبرى، وعاقبة الأمر كله، بقيام الناس لرب العالمين، لمالك يوم الدين. وقد رأينا أن استعراض آيات الله الكونية هو لخدمة هذا الغرض، وتأكيد حقيقة البعث، وإقامة الدليل على الغيب بالمشهود. وبذلك تكون حجة الله البالغة قد أُقيمت على جميع الخلائق .. بالحق وللحق. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...** ﴾ [الكهف: ٢٩].

(٦)

مبكاة العابدين

يقول تعالى فى سورة الجاثية :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

يلفت النظر فى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ فهو تعبير لم يتكرر فى القرآن الكريم، وله معنى عميق حيث إن اقتراف السيئة يعتبر رذيلة تنطوى على جرح فضيلة من الفضائل أو حسنة من الحسنات أو مكرمة من المكارم .. كما تُجرح الأجساد والأنفس.

والآية تدل على أن الذين اجترحوا السيئات واقترفوا الآثام والمعاصى لا يستوون مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ومن يظن غير ذلك فقد أساء الحكم ولم يتحر العدل والحق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

ويلفت النظر أيضاً فى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ... ﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يحيون فى الآخرة فقط حياة طيبة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، وقبلها تكون قبورهم قبل بعثهم روضة من رياض الجنة، ولكن هذا شأنهم أيضاً فى الدنيا، فهم يحيون حياة طيبة .. طيَّبها الله لهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

فالمؤمن أغنى الناس فى الدنيا لأنه رضى بما قسمه الله له مصداقًا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام حيث قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» متفق عليه عن أبى هريرة، وحيث قال أيضاً: «من أصبح منكم آمناً فى سربه معافاً فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» رواه الترمذى.

والمؤمن أفرح الناس مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ

وانشرح مصداقًا لقوله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

والمؤمن أسعد الناس، وصدق هذا الزاهد العابد الذى قال: «نحن فى سعادة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف» .. وهى السعادة بالإيمان التى لا تعادلها سعادة ولا يمكن الحصول عليها بالمال أو السلطان فهى منحة من الله تعالى لا يعطيها إلا لمن يستحقها وجاهد فى سبيلها.

وصدق الشاعر حين قال :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد

هذه هى حياة الأنبياء والصالحين .. حياة طيبة مع طاعة الله وفضله ورضوانه، والله سبحانه وتعالى قبل أن يبتليهم ـ فهم أشد الناس بلاءً كما جاء فى الحديث ـ يمدهم بالصبر والرضا، فيحمدون الله ويشكرونه على كل حال. وإذا رجعنا إلى قصة يوسف عليه السلام فسوف نجدها نموذجًا لما نقول. فقد كان حاله فى غيابة الجب مثل حاله فى غياهب السجن مثل حاله وهو متربع فوق العرش. بل إنه لم يذكر الموت فى دعائه إلى الله وهو فى الجب أو فى السجن تبرمًا وضيقًا من حياته ولكن ذكره وهو يعتلى العرش وبعد أن اجتمع شمله مع أبيه وإخوته، ولنستمع إلى ضراعته التى ختمت بها قصته.

* ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

[يوسف: ١٠١].

فقد اشتاق للقاء الله بعد أن انتهت فصول القصة وتمت النعمة.

ولنرجع مرة أخرى لهذه الآية من سورة الجاثية التى صدّرنا بها هذا الموضوع ..

* ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فإن هذه الآية تسمى .. «مبكاة العابدين» .. ويرجع سر هذه التسمية إلى ما رواه إبراهيم بن الأشعث فقال: «كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردد أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها وهو يبكي ويقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت».

وهكذا كان شأن الصالحين وتقواهم لله، يذرفون الدموع من خشية الله، فيبشرهم الرسول عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة في الآخرة فيذكر ضمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه» متفق عليه عن أبي هريرة ﷺ. ويذكر العينان اللتان لا تمسهما النار «عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» رواه الترمذي عن ابن عباس ﷺ.

اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا تجعلنا من الذين اجترحوا السيئات، وطيّب لنا محيانا ومماتنا .. آمين.

(٧)

أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟

عنوان هذا الموضوع .. هو عبارة عن الآية رقم (٢٦) من سورة القيامة التى ذُكر الإنسان فيها ست مرات .. وتكرار ذكر الإنسان فى هذه السورة يبدو وكأنه تمهيد للسورة التى تليها مباشرة وهى سورة الإنسان. وقد توالى ذكر الإنسان فى سورة القيامة كالتالى :

* ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة: ٣].
* ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة: ٥].
* ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة: ١٠].
* ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣].
* ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤].
* ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

ولنتساءل بعد هذا السرد .. ما معنى أن يترك الإنسان سدى ؟

وحيث إن هذا لم يحدث ولم يُترك الإنسان سدى بعد خلقه .. فتعال بنا نفترض هذا الافتراض ونرى .. كيف يكون حال الإنسان لو ترك سدى ؟

أولاً : أن يُخلق للاسبب وأن يترك بلا هدف.

ثانيًا : أن يُترك بلا منهاج يحدد له ما تصلح به حياته، ويعرفه ما ينفعه لكى يفعله وما يضره لكى يمتنع عن فعله.

ثالثًا : أن يُترك دون تعريفه بنفسه ودون تعريفه بالمخلوقات التى حوله، ودون تعريفه بعلاقته ببنى جنسه وعلاقته بباقى المخلوقات .. وقبل كل ذلك تعريفه بخالقه وما ينبغى عليه تجاه هذا الخالق.

رابعًا : أن يُترك بلا نظام للثواب إذا أحسن، وللعقاب إذا أساء.

خامسًا : أن ينتهى أمره بالموت ويترك بلا بعث ولا حساب ولا جزاء.

فهل ترك الله الإنسان سدى ؟

ولنسأل نفس السؤال بصيغة أخرى .. وهذه الصيغة ليست من عندنا ولكنها آية من كتاب الله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾.

[المؤمنون: ١١٥].

والإجابة .. أنه تعالى الله علواً كبيراً عن ذلك.

والإجابة ليست من عندنا أيضًا ولكنها من عند الله الذى يقول فى الآية التى تليها مباشرة: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾.

[المؤمنون: ١١٦].

وتذكر الافتراض الذى ذكرناه آنفاً، وانتبه لما سوف نذكره فيما يلى :

اولاً : لقد خلق الله الإنسان لسبب وحدد له هدف :

مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

* ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢].

ثانيًا : لقد أرسل الله للإنسان المنهاج الذى تصلح به حياته، وهو الكتب المنزلة على الرسل وختامها القرآن الكريم .. وهذه الكتب تتضمن الأوامر والنواهى وما يهدى إلى صراط الله المستقيم، وتعرفه ما ينفعه لكى يفعله، وما يضره لكى يمتنع عن فعله مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

* ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴾ [الإسراء: ٩].

* ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

* ﴿ ... قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

* ﴿ ... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ثالثًا : لقد عرَّف الله الإنسان بنفسه وعرفه بالمخلوقات التى حوله وحدد له علاقته ببنى جنسه وعلاقته بباقى المخلوقات .. وقبل كل ذلك عرَّف الله نفسه للإنسان ..

وفيما يلى تفصيل ذلك :

١ ـ أما عن تعريف الإنسان بنفسه فاقرأ قوله تعالى :

* ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٦].

* ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ – ٣].

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ

الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

٢ ـ أما عن تعريف الإنسان ببنى جنسه وكيف تكون العلاقة بينه وبينهم، فقد اخترنا هذه الآيات من سورة الإسراء لأنها آيات متتابعة وتغطى علاقات كثيرة ومتنوعة :

* ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

* ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ...﴾ [الإسراء: ٢٦].

* ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ...﴾ [الإسراء: ٣١]. إشارة إلى المحافظة على النسل.

* ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ...﴾ [الإسراء: ٣٢]. إشارة إلى المحافظة على أعراض الناس.

* ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ...﴾ [الإسراء: ٣٣]. إشارة إلى المحافظة على دماء الناس.

* ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٤، ٣٥]. إشارة إلى المحافظة على أموال الناس.

٣ ـ أما عن تعريف الإنسان بالمخلوقات التى حوله وكيف أنها خُلقت من أجله فاقرأ قوله تعالى :

* ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ - ٨].

* ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ... ﴾ [النحل: ١٢].

* ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٤ - ١٦].

* ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.

[الغاشية: ١٧ - ٢٠].

* ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

٤ ـ وقبل كل هذا التعريف .. فقد عرّف الله نفسه للإنسان حتى إذا عرف إلهه وخالقه وربه حق المعرفة عبده حق العبادة .. ونكتفى فى هذا الصدد بما يلى من آيات لقدرها ومقامها وإلا اضطررنا إلى كتابة نصف القرآن الكريم إذا أردنا حصر آيات التعريف بالله .. يقول تعالى :

* ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

* ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

رابعًا : لقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب .. وهذه الكتب ما هى إلا وعد

ووعيد وترغيب وترهيب، وتبشير وإنذار، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ما هم إلا مبشرين ومنذرين مصداقاً لقوله تعالى :

* ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا يعنى أن كتب الله التى أنزلها هى أساساً ـ إلى جانب الأغراض الأخرى ـ أوامر ونواهى مرتبطة بنظام للثواب والعقاب، والثواب لمن أحسن وأتمر بالأوامر وانتهى عن النواهى، والعقاب لمن أساء وخالف الأوامر وارتكب النواهى.

وثواب الله أساسًا آجل وهو الجنة، ومنه العاجل وهو ما يفيض الله به من فيض إحسانه على عباده الصالحين فى الدنيا.

وعقاب الله أساسًا آجل وهو النار، ومنه العاجل مثلما حدث للأقوام .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٥، ٦].

ومثلما حدث للأفراد .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ... ﴾ [القصص: ٨١]. حكاية عن قارون.

ومثلما حدث للجماعات .. مصداقًا لقوله تعالى :

* ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠]. حكاية عن أصحاب الجنة.

فضلاً عما يعرف فى الشريعة الإسلامية بالحدود والقصاص بنصوص القرآن والسنة وكذلك التعزير .. وهى العقوبات التى يطبقها أولو الأمر على المخالفين لأوامر الله والخارجين على منهاجه ولا يوجد لهذه المخالفات عقوبات فى القرآن أو السنة.

خامسًا وأخيرًا : نصل إلى حقيقة البعث، إلى يوم القيامة، يوم يقوم الناس

لرب العالمين، يوم يرجعون إلى الله، يوم يحشرون للحساب، يوم يُنادى أهل الموقف بصفة عامة وملوك الأرض بصفة خاصة .. يناديهم الله ـ تعالى ـ ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يقدر أحد على النطق ويأتى الرد من الله ذاته: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. لقد خشعت الأصوات للرحمن: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]. وقيل أن هذا الهمس ما هو إلا قول الأنبياء والرسل «يا رب سلم سلم» فما بالك بغيرهم.

* ويوم القيامة هو موضوع سورة القيامة، وهو موضوع الدين، وهو يوم الدين، وحيث إننا أثبتنا أن الله لم يترك الإنسان سدى، فإنه لابد من القيامة، ولابد من الرجعة، فهى واقعة، وواجبة الوقوع .. وإلا كانت حياة الإنسان سدى، وكان خلقه عبثاً .. وتأمل مرة أخرى الآية التى سبق أن ذكرناها فى البداية ..

* ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

حيث يُفهم من الآية أن الخلق دون الرجوع يكون عبثاً .. وتعالى الله علواً كبيراً عن العبث، لذلك تأتى الآية التى بعد مباشرة لتقول :

* ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

* لو لم يكن أمر الخلق .. خلق الإنسان، وخلق السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى على هذا النحو الذى سردنا .. لكان الأمر ينطوى على لهو ولعب إلى جانب السدى والعبث لا نقول ذلك من عندنا ولكن نردد ما قاله الله فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. واقرأ قوله تعالى عن هؤلاء الذين أنكروا البعث ورده عليهم :

* ﴿إِنْ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

لاعبين ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٤٠].

واقرأ قوله تعالى ـ أيضاً ـ عن سُنته الماضية والمضطردة التى لا تتبدل ولا تتغير فى عقاب من خالفوا الرسل وكذبوهم وأنكروا البعث.

* ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٥ - ١٨].

.. وبعد .. ألا يزال الإنسان يحسب أن يترك سدى ؟!!

ثم تأتى الآيات بعد ذلك بأسئلة للذكرى والاعتبار وعليه أن يجيب على نفسه :

* ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧] .. بلى كان كذلك.

* ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨] .. نعم كان كذلك.

* ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩] .. نعم الواقع يشهد بذلك.

* ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] .. بلى قادر.

والأمر عند هذا الحد، وبعد هذا السرد .. لا يحتاج منا إضافة.

اللهم إنى أسألك نفساً مطمئنة توقن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك.

.. آمين .

(٨)

ماذا لو بسط الله الرزق لعباده ؟

يقول تعالى فى سورة الشورى :

* ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشوري: ٢٧].

إن من يقرأ هذه الآية ويتفكر فى واقع حياته وحياة الأفراد والجماعات والدول فى الماضي والحاضر لنطق لسانه من فوره .. صدق الله العظيم. فهو الخبير بعباده ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]. وهو البصير بشؤونهم وبما يصلحها أو يفسدها ﴿ ... اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقد يتصور الإنسان بفكره المحدود ونظرته القاصرة أنه لو عاش هو وغيره فى رغد من العيش لكان هذا منتهى أمله فى الدنيا ولزادت سعادته فيها ولساد السلام والوئام بين الجميع. ولكن الواقع يقول لنا أن البغى والعدوان على المستوى الفردى والجماعى لا يكون فى كثير من الأحيان إلا ممن بسط الله لهم الرزق، والأمثلة الفردية فى حياتنا كثيرة لو استرجعها كل منا لوجد أن الكبير يريد أن يبتلع الصغير كالأسماك فى البحار، فكم من صاحب سلطان جار على سلطان غيره ليمسك بيده كل زمام الأمور، وكم من صاحب مال أراد أن يتوسع فى تجارته أو صناعته أو زراعته فلا يجد سبيلاً لهذا التوسع إلا على حساب غيره ممن هم مثله أو دونه ولا يهنأ له بال حتى يتربع على أنقاض غيره ويبقى وحده فى الميدان، وكم من صاحب مهنة أو حرفة أساء لأقرانه بإشاعة الأكاذيب عنهم لإثبات أنه الأول والأوحد فيسطع نجمه وتأفل باقى النجوم.

هذا يحدث فى مجال الأفراد .. أما فى مجال الجماعات والدول فالوضع أنكى وأمر، وأبرز مثال على ذلك الاستعمار .. فالدول الاستعمارية عادة ما تكون متخمة بالثروات والأرزاق الوفيرة من كل نوع ولكنها لا تكتفى بذلك بل تعتدى على الشعوب الفقيرة وتحتل أراضيها وتستولى على ثرواتها لكى تزداد غنى، وتزداد هذه الشعوب الفقيرة فقراً وجهلاً ومرضاً. وقد تغيرت بعد ذلك أساليب الاستعمار حتى

انتهت الأمور إلى أن أصبح يخيم على العالم اليوم شبح النظام العالمى الجديد واتفاقيات الجات والفصل السابع من لائحة مجلس الأمن.

والأمثلة فى القرآن الكريم كثيرة أيضًا لمن بغوا فى الأرض بعد أن بسط الله لهم الرزق وسوف نستعرض فيما يلى بعض هذه الأمثلة فيما يتعلق بالأفراد :

* قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ... ﴾ [القصص: ٧٦]. والقصة بعد ذلك معروفة حتى انتهت بقوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

* قوله تعالى عن صاحب الجنتين : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ [الكهف: ٣٢]. فما كان منه إلا أن قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]. فانتهى الأمر به إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٥ - ٤٢].

* قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢١ - ٢٣]. والقصة لا تحتاج إلى تعليق وخاصة إذا ربطناها بسياق الموضوع وإن كانت قد وردت فى سورة «ص» فى سياق آخر.

وسوف نستعرض فيما يلى بعض الأمثلة فيما يتعلق بالجماعات والأقوام :

* ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ

رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ فهل شكروا الله على ما رزقهم ؟

لا .. ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧]. وقد فصَّل الله ـ تعالى ـ فيما تلى من آيات كيف كان إعراضهم.

* قوله تعالى في شأن أصحاب الجنة : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فقد كان تدبيرهم أن يقطفوا ثمار هذه الجنة في الصباح الباكر وحرمان الفقراء والمساكين من حقهم في زكاة هذه الثمار بخلاً منهم عن أداء هذا الحق.

فماذا حدث ؟ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٠]. فما كان منهم إلا أن اعترفوا بذنبهم بعد شيء من التلاوم وقالوا : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ وتختم القصة بهذا التعقيب من الله تعالى والتهديد لكل من تسول له نفسه أن يصنع صنيعهم : ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣١ ـ ٣٣].

* ونختم هذه الأمثلة بقوله تعالى عن أشهر نماذج الطغيان : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

باستعراض هذه الأمثلة للأفراد والجماعات والأقوام الذين بسط الله لهم الرزق نجد أن مواقفهم قد تفاوتت بين البغي، والطغيان، والبطر، والمكر السيء، والطمع في المزيد، وكفران النعمة .. وكلها أحوال تصيب ما انقطعت صلته بالله، وأصبح إلهه

هواه، وأصبحت الدنيا مبتغاه، ونسى الآخرة التى هى منتهاه.

كما نجد أن كل هؤلاء قد ضاعت منهم الدنيا التى حرصوا عليها، وضاعت منهم الآخرة التى أنكروها أو تناسوها .. وذلك هو الخسران المبين. وصدق من قال: ثلاث من كن فيه كن عليه :

* قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ... ﴾ [يونس: ٢٣].

* قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... ﴾ [فاطر: ٤٣].

* قوله تعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴾ [الفتح: ١٠].

وبعد .. فيا أيها القارئ الكريم هل تحسست الواقع الذى حولك؟ وهل تدبرت هذه الأمثلة القرآنية التى استعرضناها؟ .. إذن فهيا بنا نعيد قراءة الآية التى افتتحنا بها الموضوع ..

* ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾.

لذلك شاءت حكمة الله البالغة أن ينزل من الرزق بقدر حتى يحتاج الناس بعضهم لبعض فيتعاونوا بدلاً من أن يستغنى بعضهم عن بعض فيبغوا ويطغوا ويعتدوا.

والرزق ليس كما يفهم البعض منا أنه مقصورعلى المال والطعام والشراب وألوان المتاع المختلفة، ولكن مفهوم الرزق أوسع من ذلك بكثير .. فالصحة رزق، والقوة رزق، والعلم رزق، والرأى السديد رزق والزوجة الصالحة رزق، والأولاد البارين رزق، وقبل كل ذلك فإن طاعة الله رزق .. فصلاة خاشعة رزق، وصيام مقبول رزق، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .. رزق .. وهكذا ..

والرازق ـ جلت حكمته ـ يوزع الأرزاق على الناس بطريقة تزيد من احتمالات التعاون وتبادل المنافع عن احتمالات البغى والطغيان والعدوان، ولكن هيهات أن ينتبه الإنسان الظلوم الجهول إلى هذه الحكمة البالغة.

ولأهمية الانتباه إلى هذه الحقيقة الباهرة والحكمة البالغة فقد استوجب الأمر من الله أن يعيد الإشارة إليها فى كثير من سور القرآن الكريم وذلك على النحو التالى :

* ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦].
* ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء: ٣٠].
* ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ [القصص: ٨٢].
* ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [الروم: ٣٧].
* ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [سبأ: ٣٦].
* ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... ﴾ [الزمر: ٥٢].
* ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الشورى: ١٢].

وسبحان من يَبْسط لحكمة، ويَقْدر لحكمة، ويعطى لحكمة، ويمنع لحكمة، فهو الباسط، القادر، القابض، المعطى، المانع .. هو الله.

(٩)

يوم التغابن

يقول تعالى فى سورة التغابن :

* ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩].

إن تعدد أسماء المسمى يدل على أهميته وعظم شأنه، مع كون أن لكل اسم معناه ودلالته المستقلة عن باقى الأسماء. لذلك تعددت أسماء الله والرسول عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم، وكذلك أسماء يوم القيامة فى كتاب الله.

اللـــه .. سبحانه وتعالى له أسماء عديدة منها ما أنزله فى كتابه ومنها ما علّمه لأحد من خلقه، ومنها ما استأثر به فى علم الغيب عنده، وقد أحصى الرسول عليه الصلاة والسلام منها تسعة وتسعين اسماً كما جاء فى الحديث الذى يرويه أبو هريرة رضي الله عنه :

«إن لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».

والرســول .. عليه الصلاة والسلام له أسماء عديدة عرّفنا إياها بنفسه فقال: **«أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر .. يُحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب لا نبى بعدى»** رواه البخارى.

وذلك علاوة على كنيته .. **«أبو القاسم»**، وما نودى به من الله ـ تعالى ـ مثل .. المزمل، والمدثر، وما يحلو للمسلمين أن يسموه به مثل .. المصطفى، والمختار.

والقــرآن .. له أكثر من اسم مثل: الفرقان، والتنزيل، والذكر الحكيم، والكتاب.

ويوم القيامة .. له أسماء عديدة مثل: الواقعة، والقارعة، والحاقة، والساعة، واليوم الآخر، ويوم التناد، ويوم الحساب، ويوم الحسرة، والنبأ العظيم .. وغيرها من الأسماء إلى جانب هذين الاسمين اللذين وردا فى سورة التغابن.

يوم الجمع ، ويوم التغابن :

أما عن يوم الجمع فسوف نعرف لماذا سمى بهذا الاسم إذا قرأنا الآيات التالية :

* ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾.

[آل عمران: ٩].

* ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣].

* ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

[الواقعة: ٤٩، ٥٠].

أما يوم التغابن .. فهو اسم ليوم القيامة لم يتكرر فى سورة أخرى ..

والغبن: هو لون من ألوان الظلم يشعر به الإنسان عندما لا يستوفى حقه أو ما يظن أنه حقه.

وغبنه : بمعنى غلبه، أو نقصه، أو ظلمه، أو لم يوفه حقه.

فهل يوم القيامة بهذا المعنى هو يوم الظلم أو التظالم ؟

حاشا لله أن يكون كذلك، فالله سبحانه وتعالى يقول عن هذا اليوم :

* ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

[غافر: ١٧].

ومعنى يوم التغابن .. هو أن جميع الخلائق فى هذا اليوم سواء المحسن منهم أو المسىء سوف يشعرون أنهم غبنوا أنفسهم فى الدنيا ولم يستوفوا حقهم فيها بما ينفعهم فى الآخرة.

فالمحسن .. يشعر بأنه قد غبن نفسه فى الدنيا لأنه لم يزد فى إحسانه وكان يمكنه ذلك ليرتقى بدرجته فى الجنة عندما يرى ما أنعم الله به على من فاقوه فى الإحسان.

والمسيء .. يشعر بأنه قد غبن نفسه فى الدنيا عندما يرى ما أعده الله للمحسنين من حسن الثواب و﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وما أعده الله للمسيئين من سوء العقاب ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... ﴾ [الشورى: ٤٠].

فهل تدبرنا معانى هذا الاسم من أسماء يوم القيامة؟ واستعددنا من الآن لمزيد من الإحسان فى الدنيا .. لا نقول حتى لا نشعر بالغبن يوم القيامة .. فهو يوم التغابن لا محالة، ولكن لتضييق مساحة وتقليل قدر هذا الغبن ما أمكننا ذلك.

وهل تدبرنا فى باقى أسماء يوم القيامة؟ .. فإن لكل اسم منها دلالة بل دلالات وفى كل دلالة .. **موعظة** .